الأعراف الاجتماعية في الأحكام النحوية

د/ سامح كمال عبد المنعم

مدرس الدراسات اللغوية

كلية الآداب – جامعة دمنهور

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الخامس الجزء الثالث ٢٠٢٠م

الأعراف الاجتماعية في الأحكام النحوية

سامح كمال عبد المنعم
الدراسات اللغوية – كلية الآداب – جامعة دمنهور
البريد الإلكتروني : Www.samehyossef2357@art.dmu.edu.eg

ملخص

في علم اللغة الاجتماعي، أولى علماء اللغة اهتمامهم – في دراسة اللغة– إلى الجوانب الدلالية المتمثلة في تتبع أثر المجتمع في تغير دلالة الألفاظ وتطورها، وكذلك الجوانب الصوتية المتمثلة في تغير اللهجات، وتطور الأصوات، وتغيرها تبعا لاختلاف الجنس، بينما لم يهتم أغلبهم بدراسة أثر المجتمع في أحكام اللغة باستثناء بعض الإشارات المتفرقة في مؤلفات القدماء والمحدثين. وامتدادا لهذه الإشارات يهتم هذا البحث باستقصاء المسائل النحوية التي تأثرت في صياغتها بأعراف المجتمع وتقاليده من خلال أبواب النحو المختلفة.

الكلمات المفتاحية : اللغة، الاجتماعية، النحوية، الأعراف ، الأحكام، العادات.

Social norms in grammatical judgments

Sameh Kamal Abdel Moneim
Language Studies – Faculty of Arts – Damanhour University
E-mail : Www.samehyossef2357@art.dmu.edu.eg

Abstract:

In social linguistics, linguists have taken an interest – in the study of language – in the semantic aspects of social tracking in the changing significance and evolution of words, as well as the phonetic aspects of changing dialects, evolving voices and changing them according to gender, while most have not been interested in studying the impact of society on language judgements except for some isolated references in the writings of the ancient and modernists. As a result of these references, this research explores grammatical issues, the formulation of which has been influenced by the customs and traditions of society through different subdivisions.

Keywords: language, social, grammatical, norms, judgments, habits.

المقدمة

تتميز اللغة العربية دون غيرها من اللغات بالحياة، كما تتميز دون الغالبية منها بالإعراب، وما من نظرية حديثة بحثت في اللغة إلا وبينت مدى عظمتها وشموخها وثبات أركانها بين مختلف اللغات، ونحن في ذلك لا نحط من قدر اللغات الأخرى وأهميتها، فلكل – ولابد– أهميته ومكانته، ولكننا نكشف عن الروعة والجاذبية الربانية التي حبى الله– سبحانه وتعالى– بها لغة القرآن، فهي – كما ذكرت من قبل– لغة حية[١]، لا أقول نعيش بها، ولكنها تعيش بيننا، وتتطور بتطورنا، وتتفاعل مع عادتنا وتقاليدنا، وتعكس ما في مجتمعاتنا من عادات وتقاليد تربينا عليها، ونشأنا في ظلها. وهذه هي حال اللغة منذ نشأتها الأولى حتى يومنا هذا، فبنظرة متفحصة في نظام اللغة تستطيع أن تلمس العجب، وتنتابك الدهشة والانبهار مما تراه فيها من مشاركتها لنا تقاليدنا وأعرافنا.

ولسنا في حاجة ملحة إلى إعادة القول وترديده فيما يتعلق بتوضيح علاقة اللغة بالمجتمع، أو بيان مكانة علم اللغة الاجتماعي في الدرس اللغوي؛ حيث استهلك كثير من العلماء هذا الجانب بالدراسة والتحليل[٢].

فاللغة مسلك اجتماعي موصول – ولابد– بأعراف المجتمع وحاجاته؛ لأن "وجود اللغة يشترط وجود المجتمع ... فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلا عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتعامل به"[٣]، ولذلك قال ابن جني: "اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[٤]، فبعض جوانب اللغة

١ انظر اللغة العربية كائن حي، جرجي زيدان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٦م.
٢ للمزيد انظر:
= اللغة في المجتمع، م.م لويس، ترجمة: تمام حسان، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٩م.
=علم اللغة الاجتماعي، هدسن، ترجمة: محمود عبد الغني عياد، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٧م.
= اللغة والمجتمع، علي عبد الواحد وافي، عكاظ للنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٨٣م.
=اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، مصطفى لطفي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨١م.
٣ مدخل إلى علم اللغة، محمود فهمي حجازي، القاهرة، ١٩٨٩م، ص١٢.
٤ الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، ١٩٥٢م، ص٣٣.

لا يمكن وصفها إلا بالرجوع إلى الكلام على أنه سلوك اجتماعي في المقام الأول[١]، كما أن التركيب النحوي للغة ربما يعكس حركة التفكير عند المتكلمين بهذه اللغة، ومن ثم يمكن – عن طريق هذه الفرضية– الحصول على بعض الملامح الثقافية للشعوب من خلال لغاتها[٢].

وبما أن النحوي هو ابن المجتمع بما يحوي بداخله من موجودات ثقافية واجتماعية ودينية، وجدناه يخضع لبيئته ومجتمعه وأعرافه، يلتزم بها ويحافظ عليها، فيتمثلها في تراكيبه النحوية وأنماطه اللغوية، فقد امتثل النحاة للمعطيات الاجتماعية السائدة في عصرهم، واستنطقوها على نحو فاعلٍ في تأسيس أصولهم النحوية وصياغتها[٣].

وفي علم اللغة الاجتماعي، أولى علماء اللغة اهتمامهم – في دراسة اللغة– إلى الجوانب الدلالية المتمثلة في تتبع أثر العوامل الاجتماعية في تغير الألفاظ وتطورها[٤]، والجوانب الصوتية المتمثلة في تغير اللهجات والفوارق الصوتية في استعمال اللغة بين الذكور والإناث، وتنوعات الأسلوب[٥].

أما الجانب التركيبي للغة فلا أقول أغفله علماء اللغة، بل لم يهتم أغلبهم بدراسة أثر المجتمع وعاداته وأعرافه في تراكيب اللغة، ومن ثم أثره

١ انظر علم اللغة الاجتماعي، هدسن، ص٤٤.
٢ اللغة واختلاف الجنسين، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٥٩.
٣ انظر الصورة والصيرورة- بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي، نهاد الموسى ، دار الشروق، عمان، الأردن، ١٩٩٠ م، ص ١٢١.
٤ انظر: = دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٧، ١٩٩٢م،ص١٣٤-١٥١.
= اللغة العربية كائن حي، جرجي زيدان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٦م.
٥ للمزيد انظر:
= اللغة واختلاف الجنسين، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٨٧-١٥٩.
= اللغة والجنس- حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة، عيسى برهومة، دار الشروق، الأردن، ٢٠٠٢م، ص١٠٣، ١٢١، ١٣٠.
= Sex Differences in Human Speech, by Max Adler, Hamburg, press1978.
= Women, Men and language, by Jennifer Cootes, Longman, London, 1986.
= Gender- Based Language (The Feminist),by Susan and Ruth King, U.S.A, 1998.
= Women Words- Avocabulary of Culture and Patriarchal Society, by Jan Mills, London, press 1991.

في صياغة الأحكام النحوية، فتكاد مؤلفاتهم تغفل هذا الجانب باستثناء بعض الإشارات المتفرقة والضمنية عند بعض علماء اللغة القدماء والمعاصرين، فمن القدماء سيبويه وابن جني وابن الأنباري والسيوطي..إلخ ، ومؤلفاتهم اللغوية معروفة لأهل التخصص، ومن المحدثين د/ نهاد الموسى[١]، و د/ نايف النجادات[٢]، و د/ محمد رباع[٣]، وأبحاثهم فيها إشارات مقتضبة لأثر المجتمع في اللغة، ويعوزها أمر استقصاء المسائل النحوية المتأثرة في صياغتها أو توجيهها بأعراف المجتمع، كما أن لغة بعضهم يعوزها الوضوح، وأخص بالذكر د/ محمد رباع؛ إذ في لغته من الصنعة ما يعوق الفهم والإلمام بمادة بحثه من القراءة الأولى.

وامتدادا لهذه الإشارات والدراسات، يهتم هذا البحث باستقصاء المسائل النحوية التي تأثرت في صياغتها بالأعراف والتقاليد الاجتماعية، وذلك من خلال تصفح بعض كتب العلل اللغوية، وإمعان النظر وإعادته في بعض الأحكام النحوية، من خلال أبواب النحو المختلفة في كتب النحو.

وهذا البحث يؤكد على ما هو متعارف عليه من أثر المجتمع وأعرافه على الأحكام اللغوية بصفة عامة، والأحكام النحوية بصفة خاصة، ويكشف عن جانب طالما أهمل أغلب العلماء إمعان النظر فيه، إذ وجهت الدراسات – في علم اللغة الاجتماعي– أنظارها إلى الجانب الدلالي أو الصوتي، وأغفلت أو كادت أن تغفل الجانب التركيبي كما سبق أن أشرنا.

وفي هذا البحث – بإذن الله تعالى– نحاول أن نضع أيدينا على

١ الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية، نهاد الموسى، المجلة العربية للدراسات اللغوية، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، العدد١، المجلد٤، أغسطس١٩٨٥م.
٢ الانحراف اللغوي وعلل النحو في ضوء أعراف المجتمع العربي، نايف النجدات، مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، العدد ١٣٨، ج٢، ديسمبر ٢٠٠٨م.
٣ أثر الأعراف الاجتماعية في مسيرة العربية، محمد رباع، مجلة البلقاء للبحوث والدراسات، العدد١، المجلد١١، ٢٠٠٥م.

شيء – ولو بسيط– من حياة اللغة، والمنهج المتبع فيه منهج استقصائي ذو طابع وصفي تحليلي؛ إذ يقوم على استقصاء المسائل النحوية وتحليلها في ضوء أثر المجتمع بعاداته وأعرافه لاستخراج ما فيها من أسرار لغوية واجتماعية، وتقتضي طبيعة هذا المنهج أن يقسم البحث – بعد هذه المقدمة– إلى ثلاثة مباحث، وخاتمة على النحو التالي:

المبحث الأول

أثر المجتمع من خلال الأبواب النحوية

١- الجملة الاسمية:

من المسائل النحوية في باب الجملة الاسمية التي تأثرت في صياغتها أو تعليلها بما في المجتمع من عادات وتقاليد ما يلي:

= في عرف المجتمع أنه لا يمكننا أن نحكم على شيء مجهول لا نعرفه؛ إذ لابد أن يكون المحكوم عليه معلوما لديك حتى يصح حكمك.

وبما أن الإخبار حكم على المبتدأ، فإنهم منعوا الابتداء بالنكرة[١]، يقول ابن مالك:

ولا يجوز الابتدا بالنكرة ما لم تفد كعند زيد نمرة[٢]

فلا يجوز الابتداء بالنكرة إلا إن دلت على معنى[٣]؛ لأنها عندئذ تكون في حكم المعرفة، ومن ثم يمكن الحكم عليها، يقول ابن الأنباري: "فإن قيل: لماذا لا يكون المبتدأ في الأمر العام إلا معرفة؟ قيل: لأن المبتدأ مخبر عنه، والإخبار عما لا يعرف لا فائدة منه"[٤].

= ومن المألوف – في المجتمع العربي وغيره من المجتمعات– أن منزلة المرأة تأتي بعد الرجل، فالرجل مقدم على المرأة مفضل عليها، فليس الذكر كالأنثى.

وقد عجزت اللغة عن ستر هذا الأمر في بنيتها التي غلب فيها المذكر على المؤنث ، فجعلوا المذكر أصلا للمؤنث[٥] في مواضع عديدة، ومن ذلك أنه

---

١ انظر الأصول في النحو، ابن السراج، ت: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٩م، ٦٥/١.
وشرح الأشموني، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٥٥، ٩٥/١.

٢ ألفية ابن مالك في النحو، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٧.

٣ للمزيد انظر الابتداء بالنكرة في القرآن الكريم، شرف الدين الراجحي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢م.

٤ أسرار العربية، ابن الأنباري، ت: محمد بهجت البيطار، المجمع العلمي العربي بدمشق، د.ت، ص٦٩.

٥ انظر الكتاب، سيبويه، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٨م، ٢٢/١.

إذا اجتمع مذكر ومؤنث وأريد الإخبار عنهما وجب تغليب المذكر مطلقا، تقول: الشاب والفتاة قاما، ومحمد وفاطمة ابنا علي فعلا كذا، وهذا وهذه أبناء عمومة[١].

= للمعتقدات الدينية – ولابد– أثر مؤكد وواضح في تراكيب اللغة، أو قل لها أثر في توجيهها بما يتوافق مع الأعراف الدينية التي يعيش بها المجتمع، حيث "يستند استخدام اللغة إلى الذاكرة المعرفية لأصحابها، وتحدد المجالات الدلالية، وتختار الألفاظ والتراكيب والأساليب في ضوء القيم الثقافية للجماعة اللغوية، وللمعتقدات الدينية أثر ملحوظ في هذه العملية"[٢]، وسيأتي الحديث عن ترديد بعض النحاة لمصطلح إعراب الأدب مع الله[٣].

ومما يتعلق بهذا الجانب في باب الجملة الإسمية أنه منعوا نحو قولك: الحمد لزيد، بإسناد لفظ (الحمد) لـ(زيد) أو لغيره من البشر؛ لا لشيء إلا لأن هذا التركيب مخصوص لتعظيم الله تعالى، فلا يجوز استخدامه لتعظيم غيره عز وجل، فليس كل شيء من الكلام يكون تعظيما لله عز وجل يكون تعظيما لغيره من المخلوقين[٤].

= ومن التوجيهات الشرعية في المجتمع العربي المسلم أنه من كان حالفا فليحلف بالله، ومن حلف بغير الله فقد أشرك، وألا نكثر من الحلف بالله إلا اضطرارا، يقول تعالى: "وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ" (البقرة ٢٢٤).

واستجابة من اللغة لهذا الأمر زودت المتحدث بمؤكدات كثيرة مكنته من

١ انظر المذكر والمؤنث، ابن الأنباري، ت: طارق الجنابي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٨م، ص٦٧٨.
٢ التحليل النحوي العقدي- بحث في أثر المعتقدات في الدرس اللغوي، أحمد شيخ عبد السلام، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد١٢، ١٩٩٨م، ص١٥١.
٣ خصص الآثاري فصلا من آخر ألفيته،عقده باسم: "خاتمة الفصول"، تحدث فيه عن إعراب الأدب مع الله تعالى، وذلك في قوله: **خاتمةُ الفصول: إعرابُ الأدبْ مع الإلهِ، وهو بعضُ ما وجبْ** (ألفية الآثاري- كفاية الغلام في إعراب الكلام، ت: زهير زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٧م، ص ١٠٩).
٤ انظر شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، ت: إيميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ٢٣٣/٢.

عدم اللجوء كثيرا إلى الأيمان، ومن ذلك (لام الابتداء، وإن)، فإن قال أحدهم: زيد ناجح، وكذب شخص آخر هذا الأمر، فإن أراد الأول تأكيد قوله، فلا حاجة له إلى القسم؛ حيث يقول: لزيد ناجح، وإن أراد المزيد من التوكيد زاد (إن) وزحلق لام الابتداء إلى الخبر حتى لا يجتمع توكيدان، وقال: (إن زيد لناجح)[١].

وفي زحلقة لام الابتداء إلى الخبر بعد دخول (إن) على الجملة، في هذا الأمر امتثال لقوله عز وجل: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ" (المجادلة ١١)[٢].

٢ – الجملة الفعلية:

= من غلبة المذكر على المؤنث في المجتمع العربي القديم نجد – في الجملة الفعلية– أن فعل الفاعل المذكر الحقيقي – مفردا ومثنى وجمع سلامة– لا يمكن أن يجيء مؤنثا، أما الفاعل المؤنث فقد أباحت قواعد اللغة العربية خلع علامة التأنيث عن الفعل إذا فصل عن فاعله بأي فاصل، نحو قولهم: قام اليوم هند[٣].

كما أباحت العربية تذكير فعل الفاعل المفرد المجازي التأنيث دون فاصل، نحو: طلع الشمس، وانتهى الندوة[٤]. فالعربية تجترئ على تذكير المؤنث، بينما لا تجرؤ على العكس لما للمذكر من مكانة ترتقي على مكانة المؤنث.

ومن أثر ذلك – أيضا– أن نجد الفعل واجب التذكير، وإن كان الفاعل مؤنثا ، وذلك في حالة كون الفاعل المؤنث محصورا بـ(إلا)، نحو قولهم: ما

١ انظر شرح ابن عقيل، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط٢٠، ١٩٨٠م، ٣٦٣/١.

٢ للمزيد انظر المضامين الأخلاقية في القاعدة النحوية، إبراهيم محمد العريني، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ص١٨.

٣ انظر شرح ابن عقيل ٨٩/٢.

٤ السابق نفسه ٨٨/٢-٨٩.

جاء إلا هند[١].

ومن الملاحظ أن هذا الحكم يسري على الفعل حتى وإن كان من الأفعال التي تختص بها النساء، نحو قولك: ما ينجب إلا هند، وما يحيض إلا ليلى، وما يرضع إلا بشرى، وذلك كله يوضح أن الغلبة دائما للمذكر، فكأن ما يتمتع به المذكر من مكانة – في المجتمع– تعلو على مكانة المؤنث، كان له دور في أن تجري اللغة على ألسنة العرب بهذه الكيفية.

= ومن اشتغال الفرد في المجتمع عن أمر معين بأمور أخرى قد تكون أكثر أهمية بالنسبة إليه، يمكننا أن نحمل عليه ما ذكر النحاة في باب الاشتغال في تعليقهم على المثال: (زيدٌ ضربتُه)، حيث اشتغل الفعل عن العمل في (زيد) بالعمل في ضميره (الهاء)، ولو لم يشتغل الفعل بضميره لنصب (زيد)[٢].

= وعندما يكون اللبس مأمونا في الجملة الفعلية قد يخرج العربي على أحكامها النحوية، وذلك في أمثلة نحو: خرق الثوبُ المسمارَ، وكسر الزجاجُ الحجرَ، ولكن أضاف د/ نايف النجادات إلى علة هذا الخروج على معتاد اللغة – في هذه الأمثلة– سببا آخر اجتماعيا ، فقال: "وفي هذا الخروج – أيضا– احترام لقدرات مستخدميها، فلا تعطيه الأشياء على حقيقتها إذا كانت تلك الحقيقة مدركة بداهة، فجاءت عبارات نحو: كسر الزجاج الحجر، وخرق الثوب المسمار، فالمتلقي العاقل يهتدي إلى المعنى المقصود دون هداية من الحركة الإعرابية، ويمكن عد هذا الخروج على المعيارية متوافقا مع الحرية التي نشأ عليها العربي"[٣].

١ انظر شرح الأشموني ١/١٧٤.
٢ ذهب النحاة إلى أن الاختيار في هذا المثال رفع (زيد)، وأجاز سيبويه النصب على تقدير فعل، فقال: "وإن شئت قلت: (زيدا ضربته)، وإنما نصبه على إضمار فعل هذا تفسيره، كأنك قلت: (ضربت زيدا ضربته)." الكتاب ١/٤٢-٤٣.
٣ الانحراف اللغوي، د/ نايف النجادات، ص١٩٢.

فالإنسان العربي القديم كان يتميز بالفطنة والبداهة، ومن ثم فلا حاجة لحركات الإعراب ليتمكن من الوصول إلى المعنى المراد، فهو يستغني عن حركة الإعراب كما كان يستغني من قبل عن نقط الإعجام[١]، وهذا يبرر عدم جواز القياس على هذا النمط من الجمل في وقتنا الحالي.

فالحرية التي نشأ عليها الإنسان العربي في مجتمعه خولت له التصرف في الجملة عند استخدامها، فرفع المفعول ونصب الفاعل.

= واعتبار الوضع الصحي الذي يكون عليه المتكلم قد يكون له دور في رفض الجملة على الرغم من أن ظاهرها التركيبي سليم تماما، وهذا ما جعل سيبويه يرد قول أحدهم: رأيت النجوم، حيث نوه إلى أن مثل هذا التركيب لا يستقيم إذا كان المتكلم أعمى، يقول سيبويه: "وإن قلت: رأيت، فأردت رؤية العين... فهو بمنزلة ضربت... ولكنك إنما تريد برأيت: علمت، ألا ترى أنه يجوز للأعمى أن يقول: رأيت زيدا الصالح"[٢].

= وفي باب المنصوبات تتجلى لنا ملامح من الحياة التي كان يعيشها العربي، وذلك من خلال بعض التراكيب السماعية، نحو: سقيا، ورعيا، وجوعا، وجوسا، وتربا، وجندلا..."[٣] وهذه العبارات – التي ارتبطت كثرة استعمالها بواقع المجتمع– لم تعد تستخدم الآن، فمسوغ وجودها اختفى،

---

١ كانت الكتابة في بداية عهدها بدون نقط إعجام، أو حركات إعراب، وكانت فطنة الإنسان العربي تخول له القراءة والفهم بدون نقط، ومع تطور الكتابة ظهر النقط مخافة الالتباس، ومن طرائف هذا الأمر أن أحدهم كتب كتابا إلى أبي نواس – في بداية ظهور نقط الإعجام- ونقط له حروف الكتاب، فرد عليه قائلا:

يا كاتِباً كَتَبَ الغَداةَ يَسُبُّني ... مَن ذا يُطيقُ بَراعَةَ الكُتّابِ
لَم يَرضَ بِالإِعجامِ حينَ كَتَبتُهُ ... حَتّى شَكَلتُ عَلَيهِ بِالإِعرابِ
أَخَشيتَ سوءَ الفَهمِ حينَ فَعَلتَ ذا ... أَم لَم تَثِق بِيَ في قِراءةِ كِتابي
لَو كُنتَ قَطَّعتَ الحُروفَ فَهِمتَها ... مِن غَيرِ وَصلِكَهُنَّ بِالأَسبابِ
فَأَرَدتَ إِفهامي فَقَد أَفهَمتَني ... وَصَدَقتَ فيما قُلتَ غَيرَ مُحابي

الأبيات من بحر الكامل، منسوبة لأبي نواس في أدب الكتاب، أبو بكر الصولي، ت: محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ، ص٦١.

٢ الكتاب، سيبويه، ١/ ٤٠ .

٣ السابق نفسه ١/٣١١.

فلا حاجة لأن ندعو للإنسان بـ(سقيا ورعيا)، أو عليه بـ(جوعا وجوسا)"[١].

= ومن آثار المجتمع أن نجد من الألفاظ التي تنوب عن الظروف ما يستخدمه العربي القديم في حياته من مواعيد للعبادات، وحركات للنجوم، ومظاهر للكون، مثل: أزورك مقدم الحاج، وصلاة العصر، وطلوع الشمس، وخفوق النجم... ولا أزورك الفرقدين، والنيرين. وهو مني مناط الثريا...إلخ[٢].

٣ – المجرورات:

= إن الصبغة الإسلامية التي يصطبغ بها المجتمع العربي كان لها دور– ولابد– في بعض الآراء والتوجيهات النحوية، حيث التزم المعربون لكلام الله – عز وجل– حدود الأدب مع الله في الكثير من توجيهاتهم، ومن ذلك – في باب المجرورات– منعهم أن يكون في كتاب الله ما يطلقون عليه (حرف الجر الزائد)، يقول ابن هشام: " وينبغي أن يتجنب المعرب أن يقول في حرف من كتاب الله تعالى أنه زائد، لأنه يسبق إلى الأذهان أن الزائد هو الذي لا معنى له، وكلام الله – سبحانه وتعالى– منزه عن ذلك"[٣].

ومع ذلك فمن النحويين من وجه قوله عز وجل: " وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا" (النساء ٨١) على أن لفظ الجلالة فاعل مجرور بحركة حرف الجر الزائد، وكتاب الله العزيز ليس فيه زيادة ولا نقصان، وإن كان مصطلح (الزائد) خاصا بالنحاة وصناعتهم فلا يجوز سحبه على إعراب القرآن الكريم، فلكل حرف في كتاب الله تعالى سره وسحره، يقول الآثاري في ألفيته[٤]:

لأنـه بكـــل شيء شـــاهـــد ولا تقل ذا الحرف منه زائد

١ أثر الأعراف الاجتماعية في مسيرة العربية، محمد رباع، ص٣٩.
٢ انظر السابق نفسه ص٣٠.
٣ شرح قواعد الإعراب لابن هشام، محمد بن مصطفى القوجي، ت: إسماعيل مروة، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧م، ص١٨٠.
٤ ألفية الآثاري، ص ١٠٩.

بل هو توكيد لمعنى أو صلة للـفظ في آياته المفصـلة
أو لمعان حققت عمـن روى كهل، ونحو (بل) لمعنى لا سوى
ومن يقل بأن ما زاد سـقط أخطأ في القول وذا عين الغلط

= ومما يمكن عده من آثار المجتمع في صياغة أحكام اللغة ما نجده في قول النحاة بـ (الجر على الجوار)؛ فمجتمع يتم فيه التأكيد على حقوق الجار، فـ "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره"، ومجتمع يؤكد على أن المتلازمين يؤثر كل منهما في الآخر، فـ "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل"، يقول الجرجاني: "وكذلك قول الله تعالى: " وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ" (التوبة ٦)، قد كان هذا من أظهر شيء معهم، وأكثره في استعمالهم، أعني حفظهم للجار، ومدافعتهم عن الذمار"[١]، فهذا المجتمع لابد أن يكون له تأثير في نظر النحاة للغة وتحليلهم لها؛ فامتثال ما سبق كان له دور – ولابد– في ظهور مصطلح الجر على الجوار في قولهم: (هذا جحرُ ضبٍ خربٍ)[٢]، وقول الشاعر:

كأنّ أبانا في أفانين ودقه كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مزملِ[٣]

ولعل السماح لمستخدم اللغة بمخالفة النظام نابعة من توافق اللغة كظاهرة اجتماعية مع سائر الظواهر الاجتماعية، فهي تهييء لمستخدم اللغة مساحة من الحرية تتوافق مع حرية العربي في بيئته الفسيحة[٤].

٤– التوابع:

= من عادات الطعام عند العرب أنهم لا يجمعون في طعامهم بين السمك واللبن، وهي عادة تأصلت في أمثلتهم التي استدلوا بها في كتب النحو، فقالوا: لاتأكل السمك وتشرب اللبن.

١ الخصائص، ابن جني، ٥١/١.
٢ انظر الكتاب، سيبويه، ٤٣٦/١.
٣ البيت من الطويل لامرئ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، ط٤، د.ت، ص٢٥.
٤ انظر فجر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت،ط١٩٦٠،١٠م، ص٣٣-٣٨.

وكان لهذه العادة أثرها في توجيه النحاة بأن (أو) محذوفة في قولك: (كل سمكا لبنا) لمن قال: (آكل السمك واللبن)، أي: كل سمكا أو لبنا، وذلك لقيام قرينة دالة على أن المراد أحدهما[١]. وما هذه القرينة إلا ما تعارف عليه المجتمع من ضرر الجمع بين السمك واللبن في الطعام.

= وكانت العرب ترى أن البهائم محمودة في طباعها، وليس أدل على ذلك من اتخاذهم أسماء لأنفسهم من أسماء الحيوان، مثل: جحش وكلب وثور وكليب...إلخ، وترتب على ذلك – على نقيض ما نعيشه الآن– أنهم لا يستخدمون أسماء الحيوان في السباب والشتم.

ومن ثم – وفي هذا السياق– وجدنا من أمثلتهم – في باب بدل الغلط– أمثلة نحو: رأيت رجلا حمارا، ومررت برجل حمار، وتعليق سيبويه على هذه الأمثلة يؤكد ما نرمي إليه؛ حيث يقول: "هو على وجه محال، وعلى وجه حسن؛ فأما المحال فأن تعني أن الرجل حمار، وأما الذي يحسن فهو أن تقول: مررت برجل، ثم تبدل الحمار مكان الرجل، فتقول: حمارٍ، إما أن تكون غلطت أو نسيت فاستدركت، وإما أن يبدو لك أن تضرب عن مرورك بالرجل وتجعل مكانه مرورك بالحمار بعدما كنت أردت غير ذلك، ومثل ذلك قولك: لا بل حمارٍ"[٢].

وما هو محال في مجتمع سيبويه ممكن في مجتمعنا؛ إذ يمكن وصف الرجل بأن حمار أو كلب أو بغل ...إلخ.

= وتدخل الصفات الجسمانية للإنسان حائلا دون قبول التركيب النحوي على الرغم من صحة تركيبه؛ ومن ذلك ردهم لقولك: (أثق بهذا الطويل) إذا كان في الحضرة طويلان، رجل ورمح مثلا، ولكنها تصح إذا كان في

١ انظر شرح الكافية لابن الحاجب، رضي الدين الإستراباذي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٠٤٠.
٢ الكتاب، سيبويه، ٤٣٩/١.

الحضرة طويل واحد[١].

= وفي مجتمع يقدس النص القرآني ويتعامل معه بكل حرص، نجد النحاة يتورعون من سحب بعض مصطلحاتهم النحوية عليه؛ حيث يمنعون القول بوجود العطف على التوهم في القرآن، ومن ذلك توجيه ابن هشام لجزم (أصدق) في قوله – عز وجل–: "لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ" (المنافقون١٠)، حيث ذهب إلى أن هذا من باب الحمل على المعنى "ويقال له في غير القرآن العطف على التوهم"[٢]، وذلك تنزيها للقرآن عن التوهم.

= يقول الزمخشري: "والذي تساق له الصفة هو التفرقة بين المشتركين في الاسم، ويقال إنها للتخصيص في النكرات، وللتوضيح في المعارف... وقد تجيء مسوقة لمجرد الثناء والتعظيم كالأوصاف الجارية على القديم سبحانه..."[٣].

فتعامل اللغة مع الذات الإلهية له خصوصية وقداسة فرضتها سمات المجتمع المسلم، ومن ثم يحتاط النحاة في تحليلاتهم اللغوية.

= وفي باب (الصفات التي يستوي فيها المذكر والمؤنث في لزوم تاء التأنيث)، نحو: علامة ونسابة...التاء في هذه الصفات للمبالغة، "ولا تدخل هذه التاء في صفات الله تعالى، وإن كان معناها المبالغة، لوجود لفظ التأنيث ولا يحسن إطلاقه على الباريء؛ لأنها مبالغة بعلامة نقص"[٤].

= ومكانة الرجل في المجتمع تعلو مكانة المرأة، ومن أثر ذلك في اللغة أن معظم الثنائيات المعطوفة تبدأ بالمذكر، قالوا: إيزيس وأوزوريس، وعنتر وعبلة، وقيس وليلى، وكثير عزة، وروميو وجولييت، وحسن ونعيمة، وياسين

١ انظر الأصول في النحو، ابن السراج، ٤٢٠/١-٤٢١.
٢ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، ت: مازن المبارك، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م، ٤٧٢/٢.
٣ شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، ٢٣٣/٢.
٤ شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، ٢٤٦/٢.

وبهيه...والإخوة والأخوات، كما اطرد الاستعمال القرآني على تقديم الذكر على الأنثى في كل الآيات التي اجتمعا فيها، يقول تعالى: "وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى" (الليل٣)[١].

= وإذا أرت أن تصف مذكرا ومؤنثا مجتمعان غلب المذكر، يقول الرضي: "إذا جمعتهما في النعت غلبت التذكير على التأنيث، نحو: رأيت رجلا وامرأة ظريفين"[٢].

٥- الممنوع من الصرف:

= من العادات الاجتماعية لدى العرب – والتي لا تزال آثارها موجودة في مجتمعنا حتى الآن- أنهم لا يستسيغون التصريح بأسماء النساء، فكانوا يستعيضون عن ذكر صريح الاسم بذكر الكنى، نحو ابنة فلان ، وزوجه، وأم فلان، وأخته، ومن ثم أصبح التصريح باسم المرأة أمرا غريبا، مما أضفى – عند الصريح به- نوعا من الاهتمام والوضوح أكد على دلالة هذا الاسم ونبه إليه.

وفي ضوء أن الممنوع من الصرف ما حرم من التنوين إلا لقوة وضوحه في تعيين مسماه وتحديده، وجدنا أن الاسم (العلم المؤنث) يمنع من الصرف لقوة وضوحه عند ذكره لدى العرب، والأمر ذاته ينسحب على الأسماء الأعجمية، فهي تدخل – يوم دخولها الأول- غريبة فاقعة الدلالة[٣].

= ومن طريف الاحتكام إلى الواقع في الحياة والمجتمع ما ذكره السهيلي في انتقاده لاعتلال النحاة بعلة ثقل الكلمة والتي تسببت في منعها من الصرف، فيتساءل عن هذا الثقل قائلا: "أثقل حسي هو أم ثقل عقلي؟ فإن أردتم ثقلا يدرك بالحس: إما بحاسة اللسان، وإما بحاسة السمع، فلا شك أن قولك:

١ للمزيد انظر اللغة واختلاف الجنسين، أحمد مختار عمر، ص٥٩.
٢ شرح الكافية لابن الحاجب، رضي الدين الإستراباذي، ص ١٠٠٣.
٣ انظر: الوضوح الدلالي في المعارف وأثره في بنائها وإعرابها، د/ محمد رباع، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة النجاح، العدد٢، مجلد١٣، ١٩٩٩م، ص٦١٦- ٦١٨.

(فرزدقا وشمردلا ومسحنككا وحلكوكا واشهيبابا) أثقل على الحاستين من (زينب وسعاد وحسناء)، وإن عنيتم ثقلا عقليا يدرك بالقلب ويوجد بالنفس، فلا شك أن قولك: (همّ وغمّ وسخط وبلاء وجذام وبرص) أثقل على النفس أن تسمعه من (حسناء وكحلاء وألمى وألعس وثغر أشنب، ومقلة نجلاء، وشجرة قنواء، وروضة غناء)، فهذا الثقيل منصرف، وهذا الخفيف غير منصرف، ولا يتصور في العقل ولا في الوجود ثقل خارج عن هذين النوعين: العقلي والحسي.."[١].

٦- الأعداد:

= ذكرنا من قبل أن منزلة المرأة في المجتمع العربي القديم تأتي بعد الرجل، ومن ثم وضعوا للمؤنث علامة تميزه عن المذكر، وكأن المذكر هو الأصل[٢].

ومن تغليب المذكر على المؤنث -في باب العدد- أن الأعداد عندما تحكى دون معدود تكون مبنية على التأنيث، كما لو كان المعدود مذكرا، فتقول: ثلاثة، أربعة...تسعة، وخمسة عشر، وستة عشر...إلخ، ولذلك قالوا بأن هذه الأعداد لا تحتاج إلى علامة تأنيث مع المعدود المؤنث، تقول، ثلاث سيارات، بينما تلحقها تاء التأنيث مع المعدود المذكر، فتقول ثلاثة كتب[٣].

= والغلبة تكون للمذكر - كذلك- عندما يكون المعدود مختلطا، إذ يغلب المذكر العاقل على المؤنث في نحو قولك: (في القاعة خمسة عشر، ما بين رجل وامرأة، أو امرأة ورجل)[٤].

أما إن كان المعدود المختلط غير عاقل، كان التغليب للمؤنث، في نحو

١ أمالي السهيلي، ت: محمد إبراهيم البنا، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٢٢-٢٣.
٢ انظر الكتاب، سيبويه ٢٢/١، والمقتضب، المبرد، ت: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م، ٣٥٠/٣.
٣ انظر شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، ٦/٤، وشرح ابن عقيل ٦٧/٤.
٤ انظر شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، ١٩/٤.

قولك: (لدى زيد خمس عشرة ما بين ناقة وجمل، أو جمل وناقة)[١]، فكأن انتقالك من العاقل إلى غير العاقل انتقل بك من مجتمع له عاداته وتقاليده إلى بيئة أخرى خارج نطاق أعراف المجتمع العاقل، ومن ثم اختفى أثر المجتمع في بناء تركيب الجملة.

وقد يرجع أمر غلبة المؤنث على المذكر – في المعدود المختلط غير العاقل– إلى عرف اجتماعي مقتضاه اهتمام العربي بالإناث في تربية البهائم، "فمائة نعجة يكفيها كبش واحد، ويحتفظ البيت بمائة دجاجة ولا يحتفظ إلا بديك أو اثنين... فما يبقى ويستقر ويحتاج إلى عد هو المؤنث من البهائم، أما الذكور فلا يتجاوز الاحتفاظ بها فترة تهيئتها للذبح، وكأن الذي ينوي عد البهائم والأشياء يذهب ظنه إلى ما يكثر استخدامه، وهو المؤنث"[٢].

= ووما ذكرناه من غلبة المذكر للمؤنث ينسحب على العدد الذي على وزن (فاعل)؛ لأنك تقول: "(هذا رابع أربعة) إذا كان هو وثلاث نسوة، لأنه قد دخل معهن فقلت: (أربعة) بالتذكير؛ لأنه إذا اجتمع مذكر ومؤنث جعل الكلام على التذكير لأنه الأصل. وتقول على القول الآخر: (هذا رابع ثلاث يا فتى)؛ لأنه لم يدخل معهن"[٣].

= ومن باب ما سبق "أن (العشرين) وبابه من نحو (ثلاثين) و(أربعين) إلى (التسعين) مما هو بلفظ الجمع، يستوي فيه المذكر والمؤنث، كأنهم غلبوا جانب المذكر... وهذه قاعدة: أنه إذا اجتمع (المذكر والمؤنث) غلب المذكر لأنه الأصل"[٤]، ومن ذلك قول شاعر:

دعتني أخاها أمُّ عمرٍو ولم أكن أخـاهـا ولـم أَرضَعْ لها بلـبان

١ انظر الكتاب، ٥٦٣/٣-٥٦٤.
٢ أثر الأعراف الاجتماعية في معرفة العربية، د/ محمد رباع، ص٢٦.
٣ المقتضب، المبرد، ١٨٠/٢.
٤ شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، ١٩/٤.

دعتني أخاها بعد ما كان بيننا من الأمر ما لا يفعل الأخوان[١]

والشاهد أنه غلب المذكر، حيث عبر عن نفسه وعنها (بالأخوين)، ولم يقل: (الأختان).

٧- الأساليب:

= من الصبغة الدينية الموجودة في مجتمع العربي القديم فزعه الدائم إلى الذات الإلهية في قسمه ودعائه، مما أوجب ظهور تراكيب مخصوصة نحو: اللهم، وتالله، وترب الكعبة، لله درك[٢].

= ومن أدبهم في توجيه التراكيب في قولك: (اللهم أكرمني) لا يستقيم أن تقول بالأمر هنا في هذا التركيب، لأن الأمر لمن دونك، والدعاء لمن فوقك، وذلك على الرغم من أنك قلت: (اللهم اغفر لي)، فهو كلفظك إذا أمرت فقلت: يا زيد أكرم عمرا. يقول الآثاري:

فالربُّ مسئولٌ بأفعالِ الطلبْ كاغفرْ لنا، والعبدُ بالأمرِ انتُدبْ[٣]

= وفي سياق تراكيب النداء نجد العربي ينادي من لا يعرفه، ومن لا رحم بينه وبينه بقوله: (يا ابن عمِّ، ويا ابن أمِّ)[٤]، فلماذا لم يجعلوا مع هذين التركيبين ، أو بدلا منهما (يا ابن أبي، ويا ابن أخي، ويا ابن خالي...)؟

"لم يؤثر العربي ما سبق عبثا، (فالأخ والأب) – وإن دلا على عمق ترابط– فقد يوحي استخدامهما بأمر غير محمود إذا حملا على ظاهر اللفظ، وليس هذا بمحتمل في (يا ابن أمِّ)، أما (يا ابن عمِّ) فصلة النسب واضحة الأثر، فمنزلة العم معروفة عند العربي، والصيغة تدل على عمومية متجاذبة بين المتكلمين، فلا توحي بادعاء ما توجبه (يا ابن أبي أو يا ابن أخي)، فلمَ

١ البيتان من الطويل لعبد الرحمن بن الحكم، الكامل في اللغة والأدب، المبرد، ت: عبد الحميد هنداوي، وزارة الشئون الإسلامية، السعودية، ١٩٩٨م، ١٨٢/١.
٢ انظر ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، ت: رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٩٨م، ٥/ ٢١٩١- ٢١٩٣.
٣ ألفية الآثاري ١٠٩.
٤ المقتضب، المبرد، ٢٥١/٤.

افتقد في عصرنا (يا ابن أمِّ) وانزلقنا إلى (يا ابن أخي)؟!"[١].

فالنداء بهذه البنية المخصوصة (يا ابم أمِّ ويا ابن عمِّ) كانت لعذر اجتماعي، ومن ثم ساهمت في إزالة اللبس وأكدت على قيم المجتمع.

= ولكثرة استعمال (يا ابن أمِّ، ويا ابن عمِّ) ودورانها على ألسنة الناس، جعلها النحاة بمنزلة الاسم الواحد؛ ذلك "بأن الرجل منهم يقول لمن لا يعرف، ولمن لا رحم بينه وبينه: يا ابن عم، ويا ابن أم، حتى صار كلاما شائعا مخرجا عمن هو له، فلما صار كذلك خفف فجعل اسما واحدا، قال الله عز وجل: "قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي"(طه٩٤)"[٢].

= ومن احتفاء العربي بذاته، وبأصوله وجذوره القبلية، وجدناه دائما ما يعتني – في ندائه- بذكر الكنى والألقاب، وقلما استخدم صريح الاسم، ويجري ذلك على الكبير والصغير؛ حيث كانت العرب تكني أبناءها في الصغر وكأن لهم مولودا ذكروهو غير موجود، فيقولون: أبا بكر، وأبا عبد الله، وأبا القاسم، وأبا حفص، وأبا عمرو...إلخ، وذلك يعكس مدى مبالغة العربي فى اعتزازه بنفسه وبأولاده مما أوجد تراكيب فريدة تتناسب مع المعاني الاجتماعية التي كان يرمي إليه العربي في ذلك الوقت.

= ومن التمييز الاجتماعي بين الرجل والمرأة الميل إلى ستر المرأة وعدم ظهورها، فمكانها – في المجتمع العربي- يأتي – ولابد- بعد الرجل، "وعندي أن أسلوب الترخيم قد تخلق مختصا بأسماء النساء، وكأنه شيئ من حجاب أو بعض تحفظ على التصريح باسم المرأة كاملا، فالمهم – عند المتكلم- أن تعرف من تنادي نفسها بأدنى إشارة تحول دون انكشافها"[٣].

= ومن السلوكيات الاجتماعية التي كانت منتشرة بين العرب ندب الميت،

١ أثر الأعراف الاجتماعية في معرفة العربية، د/محمد رباع، ص٢٩.
٢ المقتضب، المبرد، ٢٥١/٤.
٣ أثر الأعراف الاجتماعية في معرفة العربية، د/محمد رباع، ص٢٣.

وهي مهنة كانت تمتهنها النساء وتختص بها دون الرجال، ويقال لها (الندابة)[١].

ومن أثر ذلك في تراكيب اللغة أن أسلوب الندبة يكاد يكون قصرا على استخدام النساء[٢]، يقول أبو حيان: "والندبة من كلام النساء غالبا"[٣].

= ومن مغالاة الإنسان العربي فى الاعتداد بأصوله وجذوره، وجدنا أسلوب الاختصاص الذي يخص فيه عشيرته أو قبيلته بالذكر تأكيدا لانتمائه لها، وافتخارا بجذوره الضاربة فيها، فهو عندما يقول: إنا – بني فلان نفعل كذا "لا يريد أن يخبر من لا يدري أنه من بني فلان، ولكنه ذكر ذلك افتخارا وابتهاء"[٤].

= وفي النظام الاجتماعي للإنسان البشر مقسمون إلى فئات أو رتب، وسلطات الواحد منهم مرهونة بمكانته الاجتماعية، قال تعالى: "وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا" (الزخرف ٣٢) ، ويبدو أن النحويين في نظرية العامل قد تأثروا بهذا التقسيم، ففسروا العلاقة بين الكلمات في التراكيب اللغوية علي ضوئه،واستخدموا مصطلح الرتبة، وكأنهم قاسوا نظام الرتبة الاجتماعية على النظام اللغوي، فنجد العوامل قد قسمت إلى عوامل قوية، وعوامل ضعيفة؛ فالفعل عامل قوي، لذا فإنه يعمل مقدرا إذا حذف في باب الاختصاص، نحو: نحن– المسلمين، ننشر السلام في العالم؛ فقد قدر النحويون فعلا ناصبا لكلمة (المسلمين) وهو (أخص أو أعني)، أما الحرف فعامل ضعيف؛ لذا فإنه لا يعمل مقدرا في نحو: ذهبت الشام، فالشام منصوب على نزع الخافض[٥].

١ في لسان العرب، ابن منظور، مادة (ندب): "نَدَبَ المَيِّتَ: بَكاهُ، وعَدَّدَ مَحاسنَهُ، والاسْمُ: النُّدْبَةُ"
٢ الأصول، ابن السراج، ٣٥٨/١.
٣ ارتشاف الضرب، أبو حيان، ٢٢١٥/٥.
٤ الكتاب ٦٦/٢.
٥ انظر الرتبة النحوية في ضوء أعراف المجتمع، نايف محمد النجادات، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، العدد ٤٥، ص٢٣٦.

= ويصدر النحاة – في توجيههم لقوله عز وجل: "أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ" (مريم٣٨)– عن أدب في التعامل مع الله عز وجل، فرضته عليهم النشأة في المجتمع الإسلامي؛ يقول المبرد: "ولا يقال لله – عز وجل– تعجب، ولكنه خرج على كلام العباد... ومثل هذا قوله: " فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى" (طه٤٤)، و(لعل) إنما هي للترجي، ولا يقال ذلك لله"[١]. فهذا التركيب في حق الله عز وجل لا يقال له تعجب.

= والأحوال الجوية في مجتمع المتكلم يكون لها دور في قبول التركيب أو رده؛ وذلك في قولك: (إن طلعت الشمس آتك)، حيث تجوز هذه الجملة إذا قيلت في اليوم الغائم، وتقبح فيما عدا ذلك، يقول الزمخشري: "ولا تستعمل (إن) إلا في المعاني المحتملة المشكوك في كونها، ولذلك قبح... (إن طلعت الشمس آتك) إلا في اليوم المغيم"[٢].

١ انظر الكتاب، سيبويه، ١/٣٣١- ٣٣٢، والمقتضب، المبرد،٤/١٨٣.
٢ المفصل، الزمخشري ١٥٠.

المبحث الثاني

أثر المجتمع في المصطلحات النحوية

المصطلحات ألفاظ يُجمع العلماء وأهل الفن على انتقائها لتدل على شيء محدد في عرفهم حدا ينماز به عن سواه، فتنتقل هذه الألفاظ من معانيها المعجمية إلى معان اصطلاحية جديدة[١]، وقد تأثر النحاة في تحليلهم وصياغتهم لبعض المصطلحات النحوية بما يدور من حولهم في المجتمع من أحوال وعادات وأعراف، ونحن – في هذا الصدد– نعرض لهذه المصطلحات كما يلي:

= الإعراب والبناء:

استوحى ابن جني من المجتمع الذي يعيش فيه تعليلا لهذه التسمية فقال في الإعراب بأن أصله "قولهم: (العرب)، وذلك لما يعزى إليها من الفصاحة والإعراب والبيان، ومنه قوله – صلى الله عليه وسلم– في الحديث: "الثيب تعرب عن نفسها"، و(المعرب): صاحب الخيل العراب، وعليه قول الشاعر:

يصهل في مثل جوف الطويِّ صهيلًا يبيِّنُ المعرب[٢]

أي إذا سمع صاحب الخيل العراب صوته علم أنه عربي، ومنه: عندي عروبة، والعروبة (للجمعة)، وذلك أن يوم الجمعة أظهر أمرا من بقية أيام الأسبوع لما فيه من التأهب لها والتوجه إليها، وقوة الإشعار بها..."[٣].

وقال في البناء: "سمي (بناء) من حيث كان البناء لازما موضعه لا

١ الحياة الاجتماعية وأثرها في أمثلة النحاة وشواهدهم في عصر الاحتجاج، محمد ناجي حسن دراغمة، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، ٢٠١٢م، ص ١١٧.
٢ البيت للنابغة الجعدي، النابغة الجعدي وشعره، إبراهيم عوض، دار النهضة العربية، ١٩٩٣م، ص١١٧.
٣ انظر الخصائص، ابن جني، ٣٦/١-٣٧.

يزول من مكان إلى غيره، وليس كذلك سائر الآلات المنقولة المبتذلة كالخيمة والمظلة والفسطاط والسرادق ونحو ذلك.. وعلى أنه قد أوقع... لفظ البناء تشبيها لذلك من حيث كان مسكونا وحاجزا ومظللا بالبناء من الآجر والطين والجص..."[١].

= اللحن:

هذا المصطلح ابن البيئة العربية التي اختلط فيها العرب بالأعاجم، "فدلالة لفظة اللحن أخذت طريقها للدلالة على كلام العجم، لأنهم كانوا يطيلون الصوت وهم يتكلمون العربية، وبدأت عند النحويين اللفظة للدلالة على الوقوع في عيب من عيوب النطق، وقد اشتهر به الأعاجم الذين يتعلمون العربية ثم لا يحسنون نطق بعض أصواتها، ثم اتسعت دلالتها لتشمل الانحراف عن النظام اللغوي المألوف في مستويات اللغة؛ الصوتي والصرفي والتركيبي... فاللحن بهذا المعنى ظاهرة فردية وظاهرة اجتماعية؛ فردية: تتمثل في أداء الفرد للغة، وبها قد يعرف المتكلم من كلامه، وظاهرة اجتماعية بها يعرف ابن مجتمع الحاضرة من البادية، فلما كان لحن الأعاجم أكثر وضوحا من لحن العرب اختص الأعاجم باللحن، ثم انتقل للدلالة على الخطأ في الإعراب"[٢].

= الاستقباح:

وهو – قبل أن يكون مصطلحا نحويا– معيار اجتماعي اعتمده الإنسان لتقييم التصرفات المذمومة التي تخالف أعراف المجتمع وتستوجب العقاب، يقول الجرجاني: "القبيح هو ما يكون متعلق الذم في العاجل،

١ السابق نفسه ١/٣٧-٣٨.
٢ الانحراف اللغوي وعلل النحو في ضوء أعراف المجتمع العربي، نايف النجدات، ص١٨٤- ١٨٥.

والعقاب في الآجل"[١].

ومن المجتمع انتقلت فكرة الاستقباح إلى النحويين، "وتقوم على استكراه أمر في العبارة أو الكلمة، فيفرون منها إلى ما يحسن ويستحب، وهذه العلة وردت في مواضع كثيرة في كتاب سيبويه"[٢]، وقام النحاة بوصف بعض التراكيب النحوية – التي تخالف مألوف اللغة– بالقبح، فهذا سيبويه يرى أن القبح في الكلام ضرب من وضع الكلام في غير موضعه[٣]، ومنه قول الشاعر:

صددت فأطولت الصدود وقلما وصالٌ على طول الصدودِ يدومُ[٤]

ومن ذلك أيضا ما ذكره السيوطي من أن العرب استقبحت توكيد الملغي، نحو: زيد ظننت ظنا منطلق[٥].

= الـــتوهـم:

تقع – أحيانا– أحداث في المجتمع نظرا للوهم، فقد يتصرف رجل مع آخر على أنه يعرفه وهو واهم، ثم يدرك أنه ليس المقصود فيعتذر، ويكفي أن يقول: توهمت، أو وهمت، فهذا في العرف كاف للاعتذار، وقد يؤدي هذا التوهم إلى الأذى إذا وهم شخص ما، أن مقابله هو عدوه، وهذا يحدث إذا كانت الظروف تؤدي إلى التوهم، كشدة الشبه في الشكل أو الملابس، أو شدة الظلام، أو غير ذلك. يقول السيوطي: "ومن سنن العرب التوهم

١ التعريفات، الجرجاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م، ص١٢١.
٢ مظاهر التعليل في كتاب سيبويه، سناء علي حسين، مجلة دواة، جامعة كربلاء، المجلد الخامس، العدد١٨، ٢٠١٨م، ص ١٠٧.
٣ انظر الكتاب، سيبويه، ٣١/١.
٤ القبح في البيت من أن (قلما) لا يليها إلا فعل، ووليها في البيت اسم (وصال)، والبيت من بحر الطويل منسوب لعمر بن أبي ربيعة في الديوان، ت: فايد محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م، ص٣٥٨.
٥ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطي، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٩م، ٥٤٤/١.

والإيهام، وهو أن يتوهم أحدهم شيئا ثم يجعل ذلك كالحق"[١].

وقد انتقل استخدام هذا المصطلح إلى كتب اللغة والنحو للإشارة إلى ما وقع فيه بعض مشاهير الرواة المشهود لهم بالفصاحة من خروج على أنظمة اللغة، وهذه المخالفات تجد مسوغا لها – وهو نابع من أعراف المجتمع– وذلك بأن ينص العلماء بأن هذا الخطأ أو الخروج من باب الوهم، وهذا المبرر اللغوي لتسويغ التراكيب المخالفة لا يتجاوز فئات معينة من أبناء المجتمع لهم مكانتهم العلمية واللغوية وعلى رأسهم الشعراء، ومن التوهم قول زهير:

بدا لي أني لست مدرك ما مضى ولا سابقٌ شيئا إذا كان جائيا[٢]

وقد حسنه النحاة على توهم حرف الجر الباء في خبر ليس [٣].

وكان سيبويه يستخدم أحيانا مصطلح الغلط في مواضع التوهم، يقول: "واعلم أن ناسا من العرب يغلطون فيقولون: إنهم أجمعون ذاهبون، وإنك وزيد ذاهبان، وذاك أن معناه معنى الابتداء، فيرى أنه قال: هم، كما قال: **(ولا سابق شيئا إذا كان جائيا)**"[٤].

= التعليق عن العمل:

التعليق ظاهرة تتعلق بظن وأخواتها، وهو ترك عملها، أي عدم مباشرتها للمفعولين لفظا ومعنى، وذلك إذا وقع أحد هذه الأفعال قبل شيء له الصدارة[٥]... كقول الشاعر:

١ المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ت: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار التراث، القاهرة، ط٣، د.ت، ٣٣٦/١. وانظر الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، ت: أحمد صقر، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٣٧٧.

٢ البيت لزهير بن أبي سلمى، الديوان، ت: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٤٠.

٣ للمزيد انظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة صبيح، القاهرة، د.ت، ٢٧٧/٢،٢٧٦.

٤ الكتاب، سيبويه، ١٥٥/٢. كما عقد السيوطي بابا في مزهره لأغلاط العرب، انظر المزهر ٤٩٤/٢.

٥ معجم المصطلحات النحوية والصرفية، د/ محمد سمير نجيب اللبدي، دار الفلاح للنشر والوزيع، =

ولقدْ علمت لتأتينَّ منيَّتي إنَّ المنَايا لا تطيشُ سهامُها[١]

والفعل المعلق متوقف عن العمل في مفعوليه لفظا ولكنه عامل فيها محلا، ولهذا جاز النصب بالعطف على المحل كقول كثير عزة:

وما كنتُ أدري قبلَ عزةَ ما البُكا ولا موجعاتِ القلبِ حتَّى تولَّت[٢]

وقد سمي الإلغاء اللفظي لا المحلي تعليقا تشبيها للفعل بالمرأة المعلقة، التي لا هي مطلقة ولا مزوجة [٣]، ولهذا قال ابن الخشاب: لقد أجاد أهل هذه الصناعة في وضع هذا اللقب لهذا المعنى[٤].

= الضرورة الشعرية:

نبع هذا المصطلح من المجتمع العربي الذي يعلي من شأن الشعر والشعراء، ومن ثم يلتمس لهم النحاة الأعذار لخروجهم عن مألوف أنظمة اللغة، ويغفرون لهم هذا الخروج بمسوغات مخصوصة تدعم موقفهم وتبرر خروجهم، وكان من أهم هذه المسوغات مصطلح الضرورة الشعرية. وهذه المسوغات ليست لغير الشعراء من المبدعين أو المتكلمين؛ وذلك لأن الشاعر مقيد بوزن وقافية، ومن ثم لابد من التسامح معه في لغته[٥].

فاهتمام العرب بفئات مهمة من مجتمعهم كان سببا في ظهور مصطلاحات نحوية تخصهم، وكان من بين هذه الفئات فئة الشعراء؛ وذلك أن الشعراء يزودون عن القبيلة بالشعر، ويسلطون ألسنتهم على من ينتقدهم، ويعتبرون أنفسهم أمهر المتكلمين في اللغة. والفصحاء الذين يخاطبون أفراد

=
الأردن، ط٤، ٢٠١١م، ص١٦٣.
١ البيت من الكامل للبيد ابن ربيعة، الديوان، دار صادر، بيروت، د.ت، ص١٧١.
٢ البيت من الطويل لكثير عزة، الديوان، ت: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧١م، ص٩٥.
٣ في المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة،١٩٦٠م، مادة (علق): " [المُعَلَّقَةُ]: المرأة التي لا يعاشرها زوجها ولا يطلّقها.
٤ شرح الأشموني، ١٦٢/١.
٥ انظر الخصائص، ابن جني، ٣٣٥/١، ٣٢٤، ٤٠٦/٢.

المجتمع لرفعة القبيلة لابد من تنزيههم عن الخطأ، يقول المتنبي:

أنامُ ملءَ جفونِي عنْ شوارِدِها ويسْهرُ الخلقُ جرَّاها ويختصم[١]

ومن مشهور خروج الشعراء على معتاد اللغة، قول الفرزدق[٢]:

وعضَّ زمانٌ يابن مروان لم يدعْ منَ المالِ إلا مُسحتًا أو مجلَّفُ[٣]

فقال له ابن إسحاق النحوي: علام رفعت (مجلفا)، وحقها النصب، فغضب الفرزدق وهجاه قائلا:

ولوْ أنَّ عبد الله مولى هجوته ولكنَّ عبد الله مولى مواليا[٤]

= الاستخفاف:

مال المجتمع العربي إلى الاستخفاف سعيا للتكيف مع متطلبات عيشه في بيئة شبه الجزيرة العربية؛ ففي المجتمع العربي يهرب المتكلم من الألفاظ الثقيلة طلبا لتخفيف الجهد المبذول في النطق، والواقع أن هذا الهروب ناموس طبيعي في لغات البشر جميعها، وهو ما أطلقوا عليه في علم اللغة الحديث بقانون (الاقتصاد اللغوي) في الجهد العضلي، ويقصد به "أن المتكلم يحاول أن يوصل ما في ذهنه من أفكار، أو ما في نفسه من إحساسات مع أقل جهد عضلي مبذول، وقد عبر عنه القدماء بالاستخفاف، لأن المصطلحات تختلف باختلاف الأزمنة"[٥].

واعتماد هذا المصطلح لدى النحاة القدماء ما هو إلا نتيجة طبيعية لأثر المجتمع في صياغة أحكام اللغة، ومن الاستخفاف أنهم يحذفون حرف

١ البيت من البسيط للمتنبي، الديوان، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٢٥٧.
٢ للمزيد:أخبار النحويين البصريين،السيرافي، ت: طه الزيني، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥م، ص٢١.
٣ البيت من الطويل للفرزدق، الديوان، ت: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ص٣٨٦.
٤ البيت من الطويل للفرزدق في أخبار النحويين البصريين، ص٢١.
٥ أصول النحو العربي، محمد خير الحلواني، الناشر الأطلسي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٢م، ص١١٤.
وانظر الأثر الإعرابي والبنية التحتية، محمود فراج، الشنهابي، الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص٩٩، ١٠٣.

الجر، و(أل) التعريف للتخفيف، يقول سيبويه: "وزعم الخليل أن قولهم: لاه أبوك، ولقيته أمس، إنما هو على: لله أبوك، ولقيته بالأمس، ولكنهم حذفوا الجار، والألف واللام تخفيفا على اللسان..."[١].

= الـــرتــبة:

الرتبة من منظور اجتماعي منزلة ضمن عدد من المنازل، قد تبدأ بمنزلة عالية وتنتهي بمنزلة متدنية وبينهما منازل متعددة، وهي لتنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات في مختلف القطاعات السياسية والثقافية والدينية والاجتماعية وغيرها.

وقد اهتم العرب بالرتبة والترتيب في نظامهم الاجتماعي، حيث يتقدم صاحب الرتبة الأعلى – في مختلف شئون الحياة– ويتصدر المجلس، ثم الأدنى فالأدنى، وتأثر النحويونبمفهوم المجتمع لها فنقلوه إلى الدرس النحوي ليقربوا آراءهم في المسائل النحوية وعللها للمتلقين من خلال الثقافة المجتمعية المشتركة، الأعراف والتقاليد والمعتقدات[٢].

ومن الرتب – لدى النحاة– أنهم جعلوا (الاسم) أشرف من (الفعل) ويعلوه رتبة، أما رتبة الحرف فضعيفة، يقول البطليوسي: "أما سيبويه فإنه حدد الفعل والحرف ولم يحدد الاسم... والأشبه عندي أن يكون جعل تعريته من الحد كالحد له. فإن قيل: لم خص سيبويه (الاسم) بذلك دون (الحرف والفعل)؟ فالجواب ا، الاسم هو الأصل، والفعل والحرف فرعان عليه، لأن كل واحد منهما محتاج إليه، والفروع تحتاج من البيان أكثر مما تحتاج إليه الأصول، لألا ترى أن التأنيث لما كان فرعا على التذكير احتاج إلى علامة

١ الكتاب، سيبويه، ١٦٢/٢.
٢ انظر الرتبة النحوية في ضوء أعراف المجتمع العربي، نايف محمد النجادات، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد ٤٥، ص٢٦٦.

تشعر بتأنيثه، ولم يحتج التذكير إلى علامة تشعر بتذكيره، وكذلك الجمع والإفراد والتثنية والنسب وما أشبه ذلك"[١].

ويشير ابن جني إلى أن (الفعل) قد يشتق من (الحرف) ويبقى متدني الرتبة بعد (الاسم والفعل)، ويسوق مثالا لذلك: " نحو قولهم: (سألتك حاجة فلوليت لي)، أي قلت: لا... وإن كان الحرف متأخرا في الرتبة عن الأصلين قبله"[٢].

كما يرى النحاة أن الضمير أعرف المعارف، نحو: جئت، ثم الإشارة، نحو: جاء هذا، لأنهما لا يستدعيان توضيح الفاعل للمتلقي، أما نحو قولنا: جاء زيد، فقد يسأل المستمع من هو زيد؟ فتقول: جاء زيد بن علي مثلا. ولذلك يمتنع أن يتقدم ضمير يعود على اسم مظهر له، نحو: (ضرب غلامه زيدا)، يقول ابن جني: " فهذا لم يمتنع من حيث كان الفاعل ليس رتبته التقديم، وإنما امتنع لقريتة انضمت إليه، وهي إضافة الفاعل إلى ضمير المفعول، وفساد تقدم المضمر على مظهره لفظا ورتبة، فلهذا وجب إذا أردت تصحيح المسألة أن تؤخر الفاعل فتقول: ضرب زيدا غلامه"[٣].

وكما يجري العرف الاجتماعي على أن صاحب الوظيفة الاجتماعية المهمة له نائب يحل محله ويأخذ رتبته ويقوم بمهامه أثناء غيابه، سحب النحاة ذلك على بعض مسائل النحو؛ فالمصدر ينوب عن فعله، نحو: قياما بمعنى قوموا، والمفعول به ينوب عن الفاعل، نحو: كُتِبَ الدرسُ، والحال تسد مسد الخبر، نحو: أخطب ما يكون الرجل قائما[٤].

١ الحلل في إصلاح الخلل، البطليوسي، ت: سعيد عبد الكريم سعودي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م، ص٦٦.
٢ سر صناعة الإعراب، ابن جني، ت: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ١٩٨٥م،٣٤/٢.
٣ الخصائص، ابن جني، ٢٩٣/١.
٤ انظر شرح قطر الندى، ابن هشام، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الخير، بيروت، ١٩٩٠م، ص١٨٧.

فالرتب اللغوية تتوافق مع الرتب في النظام الاجتماعي العربي حسب عاداته وتقاليده وأعرافه.

وأعراف المجتمع العربي المسلم فرضت رفض بعض المصطلحات النحوية واستبدالها بمصطلحات أخرى، وقد أفرد الآثاري لهذا الأمر بابا في ألفيته بعنوان (إعراب الأدب مع الله)[١]، ومن هذه المصطلحات:

= استبدال (المبني للمجهول) بـ (ما لم يسمى فاعله):

وذلك في إعراب الفعل (أوحي) في قوله عز وجل: "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا" (الجن١)، فلا يقال بأن الفعل مبني للمجهول، ولكن تقول: إن الفعل مبني لما لم يسم فاعله، وذلك تأدبا مع الله عز وجل.

= استبدال (المفعول به) بـ (منصوب على التعظيم):

وذلك في قولك: دعوتُ الله، لفظ الجلالة (منصوب على التعظيم)، بدلا من (مفعول به)، يقول الآثاري:

وفي: سألتُ الله، في التعليم تقول: منصوب على التعظيم[٢]

وقوله عز وجل: " شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ" (النساء١٣٥) قرأه أبو المهلب: (شهداً الله)، وخرجها أبو حفص عمر بن عادل الحنبلي: على أن لفظ الجلالة (منصوب على التعظيم) بدلا من مصطلح (مفعول به)[٣].

١ انظر ألفية الآثاري، ص ١٠٩.
٢ السابق نفسه: الصفحة نفسها.
٣ اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن عادل الحنبلي ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ٩٢/٥.

المبحث الثالث

أثر المجتمع في بعض مسائل الصرف

= فيما يتعلق باسم الفاعل واسم المفعول، نجد من الوصف بهما – في المجتمع العربي القديم– وصفا يخص النساء، ولا يمكن – بحال– أن يجري على الرجال، ولذلك وجدناهم استعاضوا – في صياغة هذا الوصف– عن ذكر علامة التأنيث، وذلك في إشارة أكيدة إلى أن هذا الوصف مختص بالنساء دون الرجال، ومن ذلك قولهم للمرأة بأنها (طالق، وكاعب، وناهد، ومعصر، ومرضع، وحائض...إلخ)[١].

ومن ناحية أخرى نجد أن من الصفات المشتركة بين الرجل والمرأة نحو: (جريح وذبيح وقتيل وصبور...أو حبيب ووالله وعاشق...إلخ)، ويمكن رد أصول ذلك إلى إيقاع عادات المجتمع؛ إذ يبدو أن تلك الصفات قد نشأت يوم نشوئها الأول رجولية صرفة، فجريح وبابها من مخلفات حروب الرجال، وعاشق وبابها مما استأثر الرجال أن يفخروا به، وكان عارا على المرأة أن يفتضح عشقها[٢].

= وقد ذكرنا من قبل أن الرجل – في المجتمع العربي– مقدم على المرأة، وقد انطبع هذا المسلك الاجتماعي على بعض أبنية اللغة، ومن ذلك – في باب المثنى– أن العربية إذا جاءت بصيغة التثنية لمذكر ومؤنث متلازمين، كانت الغلبة للمذكر، ومن ذلك: (الأبوان) للأب والأم، و(الموصلان) للجزيرة والموصل، و(القمران) للشمس والقمر، و(العصران) للغداة والعصر، و(الأذانان) للأذان والإقامة، و(الفراتان) لنهري دجلة والفرات[٣]، ومن ذلك قول الشاعر:

دعتني أخاها أمُّ عمرٍو ولم أكن أخـاهـا ولـم أَرضَعْ لها بلـبان

١ الكتاب، سيبويه، ٣٨٣/٣، ٣٨٤، والمقتضب للمبرد، ١٦٢/٣.
٢ انظر أثر الأعراف الاجتماعية في معرفة العربية، د/محمد رباع، ص٢١-٢٢.
٣ انظر شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، ١٩/٤، والمذكر والمؤنث، ابن الأنباري، ص٦٧٨.

دعتني أخاها بعد ما كان بيننا من الأمر ما لا يفعل الأخوان[١]

حيث غلب المذكر، لأنه عبر عن نفسه وعنها (بالأخوين)، ولم يقل: (الأختان).

= وفي باب الجموع فمن غلبة المذكر أن نجد في أبنية اللغة أن المؤنث يخرج من جمع الذكور، بينما لا يمكن أن يخرج المذكر من جمع الإناث؛ فقالوا: حضر المعلمون إلا هندا، وجاء الوزراء إلا فلانة، وعاد المتسابقون إلا سعادا، ولا يمكن أن تقول:جاءت المتسابقات إلا زيدا.

= ولما كان (التحقير) من المعاني الصرفية للتصغير وجدنا النحاة يمنعون تصغير نحو: (لفظ الجلالة، ومحمد، والمسجد) وذلك إبعادا لهذه الدلالة المحتملة[٢] وتأدبا مع المقدسات. وفي هذا المعنى يقول الآثاري في ألفيته[٣]:

وامنعْ منَ التصغيرِ ثم التثنية والجمعِ والترخيمِ خيرَ التسمية

= وابن الأنباري يصدر في أحد أحكامه على جمع المذكر السالم عن خلفية اجتماعية عقائدية؛ وذلك في تعليله لـ (أن الأصل في الجمع السالم أن يكون لمن يعقل)، يقول: "وذلك تفضيلا لهم، لأنهم المقدمون على سائر المخلوقات بتكريم الله لهم وتفضيله إياهم، قال الله تعالى: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" (الإسراء ٧٠)[٤].

فالإنسان مفضل على سائر المخلوقات، وعشيرته وعرقه – عند العربي– مفضلة على بقية الأجناس، وفي دائرته وعشيرته نجد الرجل مفضلا على المرأة، كما أن الأحرار مفضلون – ولابد– على العبيد.

= وفي استخدام الضمائر تنعكس عادات المجتمع؛ فمن أهم عادات

١ البيتان من الطويل لعبد الرحمن بن الحكم، الكامل في اللغة والأدب، المبرد، ١٨٢/١.
٢ انظر شرح الأشموني، ١٠٧/١.
٣ ألفية الآثاري، ص ١٠٩.
٤ أسرار العربية، ابن الأنباري، ص٥٦.

المجتمع العربي الاعتداد بذاتهم وتقديم أنفسهم على الغير، وأثر هذه العادة موجود في بنية الخطاب؛ فالمتكلم يقدم نفسه على مخاطبه، ثم يقدم المخاطب على الغائب، ولذلك يصعب أن نعثر في العربية على تراكيب من باب (الملك وأنا، أو زيد وأنت، أو أنت وأنا)، وإنما نعثر عليها(أنا والملك، وأنت وزيد، وأنا وأنت)، يقول سيبويه: "وإنما كان المخاطب أولى أن يبدأ به من قبل أن المخاطب أقرب إلى المتكلم من الغائب، فكما كان المتكلم أولى أن يبدأ بنفسه قبل المخاطب، كان المخاطب – الذي هو أقرب من الغائب– أولى أن يبدأ به من الغائب"[١].

= ومن اعتداد العربي بذاته وافتخاره بها أن يخبر الواحد منهم عن نفسه – وهو واحد– بضمير الجماعة، فـ(نحن) تحل محل (أنا)، و(قلنا) تأخذ مكان (قلت)، وذلك تعظيما للذات واعتدادا بها، لأنه من علية القوم أو يلتمس في نفسه شيئا من التعظيم والتعالي، أما الواحد من عوام الناس فلا يجوز له إلا أن يستخدم الضمائر المفردة للإخبار عن نفسه (أنا، ذهبت، قلت...)[٢].

وكذلك الأمر في شأن مخاطبة العربي للملوك وعلية القوم بضمير الجمع في قولهم: نحن نسألكم فهؤلاء لا يخاطبون بضمير المفرد (أنت) و(نسألك، وسألتك) فهذا لا يجوز إلا في الشعر[٣]، وما ذلك إلا لعلو شأن المخاطب، فتتم مخاطبته بضمير الجمع تعظيما له.

= ومن تعارف المجتمع العربي على أن الذكور تأتي أولا ومن بعدهم تكون الإناث، نجد أنه في الإضمار الواجب يقدر الضمير مذكرا وإن لم يكن في سياق الكلام ذكور، نحو قولك: (نجحت الطالبات ليس هندا، ولا يكون ميا)، فالمضمر تقديره: (هو) أو (الناجح)[٤].

١ انظر الكتاب ٣٦٤/٢.
٢ في الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية، نهاد الموسى: " (أعطينا) لا تسوغ هذه الجملة إذا كان المتكلم فردا من سواء الناس، فإذا كان رئيسا أو عالما ... ساغت" ص ٢٨.
٣ انظر الخصائص، ابن جني، ١٨٨/٢-١٨٩.
٤ انظر أثر الأعراف الاجتماعية في معرفة العربية، د/محمد رباع، ص٢٤.

الخاتمة

اللغة بنت المجتمع وصنوه، وأثر المجتمع في اللغة ليس في حاجة إلى دليل وبرهان، فهو واضح وضوح العيان في ألفاظ اللغة ولهجاتها وأصواتها وتراكيبها، وقد أولى العلماء اهتمامهم – في بداية الأمر– إلى توضيح هذا الأثر، فتتبعوه في تطور الألفاظ، وتغير اللهجات وتطور الأصوات، وامتدادا لذلك قام هذا البحث بتتبع المسائل النحوية التي تأثرت في صياغتها وتوجيهها بملامح المجتمع وعاداته وأعرافه وتقاليده، واستطاع البحث أن يرصد العديد من هذه المسائل، وكان من أهمها:

= لا يجوز الابتداء بالنكرة طالما أنه لا يصح لحكم على شيء مجهول.

= من إنزال الناس منازلهم في المجتمع أنزل النحاة ألفاظ اللغة بعضها فوق بعض؛ فالاسم أشرف من الفعل والحرف دونهما، والضمير أعرف المعارف ثم الإشارة...إلخ.

= كما مال المجتمع العربي إلى الاستخفاف سعيا للتكيف مع متطلبات عيشه في شبه الجزيرة العربية، وانتقل ذلك إلى اللغة.

= ومن اهتمام المجتمع بالشعراء؛ لأنهم يزودون عن القبيلة ويفتخرون بزعمائهم، من هذا الأمر التمسوا للشعراء الأعذار في خروجهم على معتاد اللغة، فقالوا بالضرورة الشعرية.

= وقد خص النحاة الندبة باستخدام النساء؛ لأن ندب الميت مهنة كانت تمتهنها النساء وتختص بها دون الرجال.

= ومصطلحات النحو يفوح منها دفء المجتمع بواقعه وعاداته، مصطلحات نحو الإعراب والبناء، واللحن، والاستخفاف، والتوهم، والتعليق عن العمل...

= وكان لصبغة المجتمع الإسلامية أن تصبغ تراكيب اللغة بصبغتها في بعض الأمور، من أهمها:

–تخفيفا لكثرة الحلف بالله – كما حثنا الشرع– تجاوبت اللغة بتوفير بعض المؤكدات التي يمكن الاستغناء بها عن الأيمان المغلظة، نحو التأكيد بـ(إن واللام)، في قولك: إن زيدا لمتفوق.

-استبدال بعض المصطلحات النحوية المعروفة بمصطلحات أخرى فيما أسموه بإعراب الأدب مع الله؛ فـ(العطف على التوهم) أصبح (الحمل على المعنى)، و(المفعول به) صار (منصوبا على التعظيم)، و(المبني للمجهول) تحول في بعض الراكيب إلى (ما لم يسم فاعله)...

-إقرار النحاة بعدم وجود حروف زائدة في القرآن الكريم، فلكل حرف من كتاب الله سره وسحره.

-ومنعهم إلحاق التاء التي للمبالغة كما في (علامة ونسابة) بصفات الله تعالى، وذلك تنزيها للمولى عز وجل.

-ومنعهم تصغير لفظ الجلالة تأدبا، لأن من معاني التصغير (التحقير).

= كما عجزت اللغة عن ستر تأثير بعض الأمور الاجتماعية في تراكيبها وأحكامها، ومن أهم هذه الأمور تغليب الذكر على الأنثى، وتقديمه في المجتمع، واعتباره الأصل والأنثى فرع عليه؛ حيث تجلت هذه الأمور في العديد من الأحكام اللغوية، والتي من أهمها:

-إذا اجتمع مذكر ومؤنث وأريد الإخبار عنهما وجب تغليب المذكر، نحو قولك: زيد وهند قاما.

-إذا فصل بين الفعل والفاعل المؤنث بفاصل جاز مجيء الفعل مذكرا، نحو: (جاء اليوم هند، وما جاء إلا هند)، ويختلف الأمر مع الفاعل المذكر.

-معظم الثنائيات المعطوفة تبدأ بالمذكر، نحو: قيس وليلى، وعنتر وعبلة، وكثير عزة، وإيزيس وأوزوريس، والأخوة والأخوات...إلخ.

-عند الإتيان بصيغة التثنية لمذكر ومؤنث متلازمين تكون الغلبة للمذكر، نحو الأبوان، والقمران، والأخوان...إلخ.

-عندما تحكى الأعداد دون معدود تكون مبنية على التأنيث كما لو كان المعدود مذكرا.

-وعندما يكون المعدود مختلطا تكون الغلبة للمذكر، نحو: (في القاعة خمسة عشر مابين رجل وامرأة، أو امرأة ورجل).

المصادر والمراجع

١.الابتداء بالنكرة في القرآن الكريم، شرف الدين الراجحي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢م.
٢.الأثر الإعرابي والبنية التحتية، محمود فراج، الشنهابي، الإسكندرية، ١٩٩٨م.
٣.أثر الأعراف الاجتماعية في مسيرة العربية، محمد رباع، مجلة البلقاء للبحوث والدراسات، العدد١، المجلد١١، ٢٠٠٥م.
٤.أخبار النحويين البصريين،السيرافي، ت: طه الزيني، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥م.
٥.أدب الكتاب، أبو بكر الصولي، ت: محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ، ص٦١.
٦.ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، ت: رجب عثمان محمد، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٩٨م.
٧.أسرار العربية، ابن الأنباري، ت: محمد بهجت البيطار، المجمع العلمي العربي بدمشق، د.ت.
٨.الأصول في النحو، ابن السراج، ت: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٩م.
٩.أصول النحو العربي، محمد خير الحلواني، الناشر الأطلسي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٢م.
١٠.الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية، نهاد الموسى، المجلة العربية للدراسات اللغوية، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، العدد١، المجلد٤، أغسطس١٩٨٥م.
١١.ألفية الآثاري- كفاية الغلام في إعراب الكلام، ت: زهير زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٧م.
١٢.ألفية ابن مالك في النحو، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠١م
١٣.أمالي السهيلي، ت: محمد إبراهيم البنا، ط١، ١٩٧٠م.
١٤.الانحراف اللغوي وعلل النحو في ضوء أعراف المجتمع العربي، نايف النجدات، مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، العدد ١٣٨، ج٢، ديسمبر ٢٠٠٨م.

١٥.التحليل النحوي العقدي- بحث في أثر المعتقدات في الدرس اللغوي، أحمد شيخ عبد السلام، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد١٢، ١٩٩٨م.
١٦.الحلل في إصلاح الخلل، البطليوسي، ت: سعيد عبد الكريم سعودي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.
١٧.الحياة الاجتماعية وأثرها في أمثلة النحاة وشواهدهم في عصر الاحتجاج، محمد ناجي حسن دراغمة، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، ٢٠١٢م.
١٨.الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، ١٩٥٢م.
١٩.دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٧، ١٩٩٢م.
٢٠.ديوان امرئ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، ط٤، د.ت.
٢١.ديوان زهير بن أبي سلمى، ت: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
٢٢. ديوان عمر بن أبي ربيعة، ت: فايد محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
٢٣.ديوان الفرزدق، ت: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٤.ديوان كثير عزة، ت: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧١م.
٢٥.ديوان لبيد ابن ربيعة، دار صادر، بيروت، د.ت.
٢٦.ديوان المتنبي، الديوان، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٣م.
٢٧.الرتبة النحوية في ضوء أعراف المجتمع، نايف محمد النجادات، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، العدد ٤٥.
٢٨.سر صناعة الإعراب، ابن جني، ت: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ١٩٨٥م،٣٤/٢.
٢٩.شرح الأشموني، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٥٥م.

٣٠.شرح ابن عقيل، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط٢٠، ١٩٨٠م.
٣١.شرح قطر الندى، ابن هشام، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الخير، بيروت، ١٩٩٠م.
٣٢.شرح قواعد الإعراب لابن هشام، محمد بن مصطفى القوجي، ت: إسماعيل مروة، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧م.
٣٣.شرح الكافية لابن الحاجب، رضي الدين الإستراباذي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٣م.
٣٤.شرح المفصل، ابن يعيش، ت: إيميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.
٣٥.الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، ت: أحمد صقر، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٧م.
٣٦.الصورة والصيرورة- بصائر في أحوال الظاهرة النحوية ونظرية النحو العربي، نهاد الموسى ، دار الشروق، عمان، الأردن، ١٩٩٠ م.
٣٧.علم اللغة الاجتماعي، هدسن، ترجمة: محمود عبد الغني عياد، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٧م.
٣٨.فجر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت،ط١٠،١٩٦٠م.
٣٩.الكامل في اللغة والأدب، المبرد، ت: عبد الحميد هنداوي، وزارة الشئون الإسلامية، السعودية، ١٩٩٨م.
٤٠.الكتاب، سيبويه، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٨م، ٢٢/١.
٤١.لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.
٤٢.اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن عادل الحنبلي ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
٤٣.اللغة والجنس- حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة، عيسى برهومة، دار الشروق، الأردن، ٢٠٠٢م.
٤٤.اللغة واختلاف الجنسين، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٦م.

٤٥.اللغة العربية في إطارها الاجتماعي، مصطفى لطفي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨١م.
٤٦.اللغة العربية كائن حي، جرجي زيدان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٦م.
٤٧.اللغة والمجتمع، علي عبد الواحد وافي، عكاظ للنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٨٣م.
٤٨.اللغة في المجتمع، م.م لويس، ترجمة: تمام حسان، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٩م.
٤٩.مدخل إلى علم اللغة، محمود فهمي حجازي، القاهرة، ١٩٨٩م.
٥٠.المذكر والمؤنث، ابن الأنباري، ت: طارق الجنابي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٨م، ص٦٧٨.
٥١.المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ت: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، دار التراث، القاهرة، ط٣، د.ت.
٥٢.المضامين الأخلاقية في القاعدة النحوية، إبراهيم محمد العريني، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
٥٣.مظاهر التعليل في كتاب سيبويه، سناء علي حسين، مجلة دواة، جامعة كربلاء، المجلد الخامس، العدد١٨، ٢٠١٨م.
٥٤.معجم المصطلحات النحوية والصرفية، محمد سمير نجيب اللبدي، دار الفلاح للنشر والوزيع، الأردن، ط٤، ٢٠١١م.
٥٥.المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة،١٩٦٠م.
٥٦.مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، ت: مازن المبارك، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م.
٥٧.المقتضب، المبرد، ت: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م.
٥٨.النابغة الجعدي وشعره، إبراهيم عوض، دار النهضة العربية، ١٩٩٣م.
٥٩.همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطي، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٩م.
٦٠.الوضوح الدلالي في المعارف وأثره في بنائها وإعرابها، د/ محمد رباع، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة النجاح، العدد٢، مجلد١٣، ١٩٩٩م.

60- Gender- Based Language (The Feminist),by Susan and Ruth King, U.S.A, 1998.
61-Sex Differences in Human Speech, by Max Adler, Hamburg, press1978.
62- Women, Men and language, by Jennifer Cootes, Longman, London, 1986.
63- Women Words- Avocabulary of Culture and Patriarchal Society, by Jan Mills, London, press 1991.